من نجوم الإسلام
(١٣)

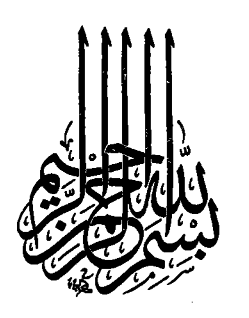
أبو عبيدة بن الجراح

القائد، الزاهد، العفيف

تأليف
عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت



أبو عبيدة بن الجراح

القائد، الزاهد، العفيف

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٢

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة : ٢١٤٦٣ - ص.ب : ٢٨٩٥ - هاتف : ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حَدَّثنا الفتى صادق أمين قال:

كنت مستلقياً على سريري، وأنا بين النائم واليقظان، عندما سمعت هاتفاً يقول بصوت عذب، فيه قوة وفيه خشوع، وفيه رقة وحنان:

ـ ألا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه، مدنّس لدينه.

ألا رُبَّ مكرِّمٍ لنفسه، وهو لها مهين.

ادرؤوا السيئات القديمات، بالحسنات الحديثات..

فلو أنَّ أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء، ثم عمل حسنة، لَعَلَتْ فوق سيئاته حتى تقهرهنّ.

فقمتُ على سريري، وأصختُ سمعي، فلم أسمع سوى زقزقة عصافير اعتادت على زيارة شجرة التوت القائمة في حديقة منزلنا، في ساعات الأصيل.

جلست على السرير، ثم اضطجعت، ثم اعتدلت جالساً، وأنا أفكّر في صاحب تلك الكلمات الرائعات، ولكنّ ذاكرتي لم تسعفني، فصرتُ أتململ على سريري تململَ السليم (أي كالذي لدغته عقرب)

وخيّل إليّ أنّ أختي صادقة قد دخلتْ عليّ غرفتي، لتسألني عمّا بـي، زاعمةً أني كنتُ أصرخ، وأنَّ صوتي قد انتهى إلى مسامع أهلي، فأرسلوا إليّ أختي، لتعلم ما بـي.

فأعدت على مسامع أختي تلك الكلمات التي حفظتها بنبراتها وشَدَّاتها وحركاتها وسكناتها، فابتسمت صادقة وقالت لي:

ــ تريد أن تعرف صاحب هذه الكلمات، أليس كذلك؟

فهتفتُ:

ــ بلى.. أرجوك.

فازدادت ابتسامتها اتساعاً وعذوبة وهي تقول:

ــ هذا الكلام البديع، لا يصدر إلاَّ عن رجل ربّانيّ.

ــ أجل يا صادقة.. ولكنّ هذا تحصيل حاصل.. من هو هذا الرجل الرباني يا صادقة؟

فهربت صادقة بعينيها المتألقتين نحو باب الغرفة، ثم قالت:

ــ ادخل يا عماه.. يا أمين هذه الأمة.

فهتفت:

ــ الآن عـرفتـه.. إنـه أبـو عبيـدة بـن الجـراح رضـي الله عنـه وأرضاه.

ولم أكمل عبارتي، حتى ظهر لي رجل طويل نحيف، معروق الوجه، أثرم الثَّنيَّتين (أي أنّ له سنّين ساقطتين من أسنانه الأمامية) خفيف اللحية، قد خضبها بالحِنّاء، وكان وسيماً جميلاً، ترتاح إليه

النفس، وتعشقه الروح.. خُيِّل إليَّ أنه يأسر مشاهديه بمبسمه الوقور، وخطواته الثابتة، وقامته المديدة. وصوته الحنون الذي كان يتسابق والنور المنبعث من وجهه الذي لا يزايله طيف ابتسامة ودود:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ورضوانه.

وجلس على الأرض، على سجادة الصلاة، فصحت:

ـ على الأريكة أرجوك.

فقال أبو عبيدة رضي الله عنه:

ـ أذكرتَني حادثة جميلة، أريدأن أرويها لكما..

فأقبلت عليه أختي التي كانت تقف إلى جانب السرير، وقالت له:

ـ عجِّلْ بها أرجوك يا عمي.

قال أبو عبيدة: لا تستعجلوني في أمر، فإني أحبّ الهدوء والتريث، وأنتما في بيتكما العامر بالإيمان ولله الحمد..

في فتوح الشام، بعث إليّ الروم رجلاً منهم، أحمر أزرق، طويلاً بديناً، ليعرض عليّ الصلح، وقالوا في رسالتهم تلك: فإن قبلتَ منه ما سيعرضه عليك، فلعل ذلك أن يكون خيراً لك ولنا، وإن أبيت فما نراه إلاّ شرّاً لك.

فقلت لهم: ابعثوا ما شئتم ومن شئتم.

فلما دنا رسول الروم منا نحن المسلمين، لم يعرفني من بين أصحابـي، ولم يدر أأنا فيهم أم لا؟ فقال الروميُّ:

ــ يا معشر العرب، أين أميركم؟

فقالوا له:

ــ ها هو ذا.

فنظر الروميُّ إليّ، فرآني جالساً على الأرض، عليّ درعي، وأنا مِمسكٌ بفرسي، وفي يديّ سهام أقلّبها، فسألني مستوثقاً:

ــ أنت أمير هؤلاء؟

قلت: نعم

قال الرومي:

ــ ما يجلسك على الأرض؟ لماذا تجلس هكذا على الأرض؟ أرأيتَ إن كنتَ جالساً على وسادة، أو كان تحتك بساط، أكان ذلك واضعك عند الله؟ أو هل يبعدك من الإحسان؟

ــ فماذا قلت له يا عمي؟

قال أبو عبيدة:

ــ قلت له: إنّ الله لا يستحيـي من الحقّ. . لأصدُقَنَّك. .

ما أصبحت أملك إلاّ سيفي ورمحي وفرسي وسلاحي، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فاقترضتها من أخي معاذ بن جبل هذا، وأشرت إلى أخي معاذ رضي الله عنه، وكان عنده شيء فاقترضته منه، ثم. . لو كان عندي بساط أو وسادة، ما كنت لأجلس عليه، وأُجلس أخي المسلم ــ الذي لا أدري لعله خيرٌ مني منزلةً عند الله عزَّ وجلَّ ــ عل ى الأرض، ونحـن عبـاد الله، نمشـي علـى الأرض، ونجلـس عليهـا،

ونأكل عليها. ونضطجع عليها، وليس ذلك بناقصنا عند الله شيئاً، بل تعظم به أجورنا، وترفع درجاتنا، فهلُمَّ حاجتك التي جئتَ لها.

فعلّقت صادقة بقولها:

ـ وأيّ حاجة يا سيّدي أبا عبيدة، فقد أفحمه منطقك الربّاني، حتى لم يَعُدْ يتلجلج فيما أحسب.

ـ كما قلتِ يا صادقة يا ابنتي.. أصابه الذهول مما سمع.

فقلتُ:

ـ طبعاً سيصاب بالذهول وهو يرى قائد جيوش المسلمين في بلاد الشام، يجلس على الأرض، كما يجلس سائر المسلمين، ويصبح وليس لديه ما ينفقه على نفسه، ولا يملك إلاَّ فرسه وسلاحه، ولا يرفع نفسه فوق إخوانه، فلعل أحدهم يكون أرضى لله منه...

وسكتُّ هنيهة ثم قلت:

ـ لله أبوك يا سيّدي!

فقاطعني بقوله:

ـ لا تذكر لي أبي، فقد مات كافراً والعياذ بالله.

فسألتْ صادقة:

ـ أما استطعتَ أن تهديه إلى الإسلام يا عمي؟

ـ بل لجّ في كفره وضلاله، وتعرّض لي أكثر من مرة في غزوة بدر، وأنا أتحاشاه، ثم لم أملك نفسي من قتله.

ـ هل كان في جيش المشركين؟

ـ نعم.. وكان من مقاتليهم الأشدّاء.. كان يريد قتلي وقتل إخواني المسلمين، فأرحت المسلمين من ثقل سيفه.

فقلت معقّباً ومعلّقاً:

ـ «إنك لا تهدي من أحببت، ولكنّ الله يهدي من يشاء». صدق الله العظيم.

وقالت صادقة مرحّبة بالقائد الزاهد العفيف أبي عبيدة:

ـ أهلاً بأمين هذه الأمة، القائد التقيّ النقيّ، ذي الأخلاق الرضيّة، العامل لآخرته، المجاهد في سبيل دينه.

قال أبو عبيدة في ودّ:

ـ أرجو عدم إطرائي ومدحي، فما أنا إلاَّ رجل من المسلمين.

فقلت:

ـ ولكنك سوف تُحشر أمّةً وحدَك يا سيِّدي، بما أوتيتَ من مزايا إنسانية تفوّقتَ بها على أقرانك من المهاجرين والأنصار.

فاستدرك أبو عبيدة:

ـ حاشا الخلفاء الراشدين.. حاشا الصدّيق والفاروق وعثمان وابن أبي طالب، وحاشا ابن أبي وقاص وطلحة والزبير وسعيد بن زيد وابن عوف.. وأنا ـ يا أولادي وحفدتي ـ رجل من أتباع سيِّد الخلق محمد ﷺ، أسمع له وأطيع، وقد نهى سيِّدي رسول الله ﷺ عن إطراء الرجل في وجهه، وعدَّ ذلك قصماً لظهره، وقطعاً لعنقه، وأنا لا أريد لهذه الرقبة التي امتنعت على سيوف الكفار، أن تُقطع بألسنة الأخيار، من أحبّاء رسول الله ﷺ.

ـ ولكننا نعرف الكثير عن أخلاقك الحميدة يا سيِّدي أبا عبيدة.

ـ نعرف أنك تتصف بالحلم إلى أبعد حدود الحلم، وأنك موصوف بالتواضع، حتى لم يميزك رسول الروم من بين أصحابك وجنودك، وأنك كنت بين عبيدك كواحد منهم، في لباسك وطعامك، ولحسن أخلاقك، ولطيب مزاياك الإنسانية الإسلامية، اختارك القائد الأمويّ خالد بن سعيد على ابن عمّه يزيد بن أبي سفيان، في مسيره إلى الشام، كما اختارك الفارس حمزة بن مالك الهمذاني العذري على سائر القادة في بلاد الشام.. اختارك على عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، لأنك كنت الأفضل عند النبيّ الكريم ﷺ، من القادة الآخرين.

وعندما سكتت أختي صادقة، قلت:

ـ أرجو أن تقدّم لنا شيئاً عن بطاقتك الشخصية.

فقال أبو عبيدة:

ـ لم أفهم.. ماذ تريد مني؟

ـ أريد أن تقدّم لأبنائك وحفدتك ومحبّيك شيئاً عن نفسك.. بعض المعلومات عن شخصكم الكريم يا سيّدي.

أبو عبيدة: اسمي عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري القرشي، وكنيتي التي غلبت على اسمي هي: أبو عبيد ابن الجراح.

صادق: أكثر الناس يجهلون اسمك يا سيّدي، ويعرفونك بكنيتك.

صادقة: وأكثر الناس يظنون أنَّ اسم أبيك: الجراح،

ولا يعرفون أنه عبد الله بن الجراح، فأنت منسوب إلى جدّك يا عمّي العزيز.

صادق: نريد المزيد من المعلومات يا سيِّدي.

أبو عبيدة: ولدت في مكة المكرَّمة عام أربعين قبل الهجرة المباركة إلى المدينة المنورة، وأسلمت على يد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، في وقت مبكر جداً من البعثة النبوية، أي قبل أن يتخذ رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

أبو عبيدة: دارَ الأرقم بن أبي الأرقم مقراً سرّيّاً لقيادة المسلمين.

فهتفنا صادقة وأنا:

ــ ما شاء الله.. ما شاء الله..

ــ هنيئاً لك يا سيِّدي سبْقُك إلى الإسلام، فهذا شرفٌ قلَّ من ناله من الصحابة الكرام، رضي الله عنهم جميعاً.

صادقة: وأنا أحفظ أنك انطلقت ــ يا عمي ــ مع الصحابة الكرام: عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي سلمة حتى أتيتم رسول اللَّهِ..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: فعرض عليكم الإسلام، وأنبأكم بشرائعه، فأسلمتم في ساعة واحدة، وذلك قبل دخول النبيّ الكريم دار الأرقم، كما قلتَ لنا قبل قليل.

أبـو عبيـدة: وعنـدمـا اشتـدت المحنـة علينـا فـي مكـة، أمـرنـا رسول اللّهِ. .

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

أبو عبيدة: بالهجرة إلى الحبشة، فهاجرت مع من هاجر إليها الهجرة الثانية، ثم هاجرت مرة ثانية إلى المدينة المنورة.

كأنّ أبا عبيدة لاحظ أني أنظر إلى فمه وأسنانه، فقال:

ــ هاتان الثنيّتان (أي السّنّان) سقطتا يوم غزوة أحد، وذلك عنـدمـا نـزعـتُ الحَلْقتيـن اللتيـن دخلتـا مـن المغفـر فـي وجنـة رسول الله ﷺ، من ضربةٍ أصابته، فانقلعت ثنيّتاي هاتان.

فقالت صادقة:

ــ فحسُنَ بذلك ثغرك، حتى قيل: ما رُئي هتمٌ قطُّ أحسن من هتم أبـي عبيدة.

أبو عبيدة: بارك الله فيك يا ابنتي، فأنت تعرفين الكثير عني.

صادق: وأنا أعرف أنك أمين هذه الأمة، ولكنني لا أعرف كيف جاءك هذا الوصف، ومتى؟

أبو عبيدة: هل تعرفين لأخيك جواباً يا صادقة؟

صادقة: نعم. . أحفظ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله:

«لما جاء العاقب والسيِّد ــ صاحبا نجران ــ أرادا أن يلاعِنا رسول الله. .

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه، فوالله لئن كان نبيّاً فلاعنّاه، لا نفلح نحن ولا عقِبنا (أي ذريّتنا) أبداً. فأتياه فقالا: لا نلاعنك، ولكن نعطيك ما سألتَ، فابعثْ معنا رجلاً أميناً يعلّمنا الإسلام. فقال ﷺ:

«لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين».

قال ابن مسعود: فاستشرف لها أصحاب رسول اللّهِ..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:

«ما أحببتُ الإمارة قطُّ، حبّي إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فرحتُ إلى الظهر مهجِّراً (يعني وقت الهجير، وهو وقت الحر) فلمّا صلّى بنا رسول اللّهِ..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: نظر عن يمينه ويساره، فجعلتُ أتطاول له ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره، حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه، فقال: «اخرج معهم، فاقضِ بينهم بالحقّ فيما اختلفوا فيه». قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة.

وقال رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: «إنَّ لكلِّ أمَّةٍ أميناً، وإنّ أميننا ـ أيّتها الأمة ـ أبو عبيدة بن الجراح.

صادق: هنيئاً لك يا سيِّدي شهادة رسول الله لك، وهنيئاً لك يا أختي ما تحفظين من سيرة الأجداد الأماجد، رضي الله عنهم.

ثم سألت أبا عبيدة رضي الله عنه:

ــ وماذا عن جهادك يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: سأروي لكم نبذاً يسيرة عن حياتي الجهادية التي لا تختلف كثيراً عن حياة المجاهدين الآخرين، إلَّا في بعض التفاصيل التي اختصّني بها رسول الله ﷺ، أو ربُّ العزّة جلّ جلاله.

صادق: وأنا أعشق التفاصيل.

أبو عبيدة: اسمعوا هذه المكرمة الربّانيّة يا حفيديّ الرائعين!.

بعث رسول الله ﷺ سريّة وأمّرني عليها، وكانت مهمّتنا محدّدة، وهي أن نتلقّى (أي نتعرض) عِيْراً (أي قافلة) لقريش، وزوّدنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكنتُ أعطي كلَّ مجاهد تمرة في اليوم والليلة.

صادق: كيف كنتم تصنعون بها؟

أبو عبيدة: كنّا نمصّها كما يمصّ الصبيُّ، ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، فكنّا نضرب الخبط (أي ورق الأشجار والنبات) بعصيّنا، ثم نبلّه بالماء فنأكله.

صادقة: الله أكبر.. ما هذه المعاناة التي عانيتموها يا أجدادنا العظام؟!..

تمرة واحدة في اليوم والليلة، مع أوراق الأشجار والنباتات؟!.

ألا فليخجل المزايدون والمتشدّقون.

صادق: وهل تلك التمرات والأوراق هي المكرمة الربّانية يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: أنا لم أتكلم بعدُ عن المكرمة الربّانيّة، وإن تكن تلك التمرات والأوراق من نعم الله علينا..

صادق: نريد المكرمة الربّانية يا سيِّدي يا أمين هذه الأمة.

أبو عبيدة: انطلقنا على ساحل البحر، فشاهدنا شيئاً ضخماً كهيئة الكثيب الضخم (أي التلّ الصغير من الرمل) على ساحل البحر، فأتيناه، فإذا هي دابة (أي حوت أو سمكة ضخمة) تدعى العنبر، وكانت ميتة. فكرّت قليلاً ثم قلت لأصحابي ـ هكذا هداني اجتهادي ـ.. قلت لهم: نحن رسل رسول اللَّهِ..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

أبو عبيدة: وفي سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلوا.

فأقمنا عليه شهراً نأكل منه.

صادق: كم مجاهداً كنتم؟

أبو عبيدة: كنا ثلاث مئة مجاهد.. أكلنا من تلك الدابة شهراً، حتى سَمِنّا، ولو رأيتنا ونحن نغترف مِنْ وَقْبِ (أي من نقرة) عينه بالقِلال من الدهن، ونقتطع منه القطعة كقدر الثور!.

صادقة: هذا حوت هائل يا عمّي.

أبو عبيدة: تصوروا.. أمرت ثلاثة عشر رجلاً فأقعدتهم في وقب عينه.

صادق: الله أكبر!.

أبو عبيدة: وأخذت ضلعاً من أضلاعه فأقمتها (أي نصبتُها) ثم نظرت إلى أطول بعير (أي جمل) في الجيش، وأطول رجل، فحملتُه على البعير، فجاز تحته (أي مرَّ من تحته). وتزّودنا من لحمه وشائق (أي عملنا منه قديداً) فلمّا قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال عليه الصلاة والسلام: هو رزق الله أخرجه لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟ فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله.

صادقة: إنها مكرمة ربّانية دون شك، أكرمكم بها ربّكم جلّ وعلا.

صادق: معنى هذا يا سيِّدي القائد، أنك كسبت شرف السبق إلى الإسلام، وشرف الصحبة، وشرف أن تقاتل تحت لواء سيّد المرسلين،

الجميع: عليه الصلاة والسلام.

صادق: وشرف أن تكون أحد قادة الرسول القائد،

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: أفلا تحدّثنا يا عمّي العزيز، عن المعارك التي خضتها إلى جانب النبيِّ الكريم؟

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

أبو عبيدة: ذكرتُ لكما أنني شهدتُ غزوة بدر، وقتلتُ أبي الذي كان مشركاً في المعركة.

صادقة: فأنزل الله قوله فيك يا عمّي. بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادّون من حادّ اللّهَ ورسولَه، ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهمُ الإيمانَ، وأيّدهم بروح منه، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم، ورضُوا عنه أولئك حزبُ الله، ألا إنَّ حزبَ الله هم المفلحون﴾ صدق الله العظيم.

أبو عبيدة: صدق الله العظيم.. والله لقد تعلمت منكما كلمتين عظيمتين، ما لنا بهما عهد، الأولى: وصفُكم للنبيّ الكريم ﷺ بالرسول القائد، وثانيتهما: صدق الله العظيم.. ما أبدعهما من كلمتين بديعتين..

(بعد لحظات)

وشهدتُ غزوة أحُد، وثبتُّ مع من ثبت مع الرسول القائد..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

أبو عبيدة: حين انهزم المسلمون، وتركوا سيِّدي رسول الله ﷺ في المعركة، بعد أن دارت الدائرة على المسلمين، بسبب مخالفة الرماة أوامر الرسول القائد عليه الصلاة والسلام.

صادقة: قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: لمّا كان يوم (أُحُد) ورُمي رسول الله ﷺ في وجهه، حتى دخلت في وجنتيه حَلْقتان من المِغْفَر (وهو زَرَدٌ يُلبَسُ فوق الرأس عند الحرب) فأقبلتُ أسعى إلى رسول الله ﷺ، وإنسان قد أقبل من قِبَلِ المشرق يطير طيراناً، فقلت: اللهمّ اجعلْه طاعة، حتى توافينا إلى رسول الله ﷺ، فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بَدَرَني، فقال:

ـ أسألك بالله يا أبا بكر، إلاَّ تركتَني فأنزعه من وجنة رسول الله ﷺ.

فتركتُه، فأخذ أبو عبيدة بثنيّتهِ إحدى حَلقتي المغفر، فنزعها وسقط على ظهره، وسقطت ثنيّة أبي عبيدة، ثم أخذ الحلْقة الأخرى بثنيّته الأخرى، فسقطت، فكان أبو عبيدة أثرم.

أبو عبيدة: بارك الله فيك يا صادقة..

قالها أبو عبيدة رضي الله عنه، وهو في قمّة تأثره، ربما لحفظ أختي الشيء الكثير من سيرته، وربّما للذكرى المريرة، والدرس القاسي الذي كان في غزوة أحد.. ثم قال أبو عبيدة:

ـ وبعثني الرسول القائد عليه السلام في أربعين رجلاً من المسلمين، فأغرنا على المشركين في مكان اسمه (ذو القصة) على بعد أربعة وعشرين ميلاً من المدينة المنوّرة، فأعجزونا هرباً في الجبال، وأسرنا رجلاً واحداً من المشركين، فأسلم.

وسكت أبو عبيدة لحظات ثم قال:

ـ وبعثني رسول الله ﷺ في المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً، بعثنا مدداً لعمرو بن العاص، في غزوة ذات السلاسل.

صادق: كم كان عددكم يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: كنا مئتي مجاهد.

صادق: هذا يدل على الثقة الكبيرة التي أولاك إياها الرسول القائد..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: أن تكون أميراً على وزيري الرسول القائد.. على أبـي بكر وعمر. فهذا يعني الكثير يا سيّدي.

أبو عبيدة: الحمد لله الذي وهبني هذه الثقة العزيزة الغالية.

وبعد لحظات، قال أبو عبيدة متابعاً الحديث عن معركة ذات السلاسل:

ــ وقال لي الرسول القائد: لا تختلفا.

ــ أوصاك ألا تختلف مع عمرو بن العاص يا سيِّدي؟

ــ أجل.. فخرجت حتى قدمت على عمرو، فقال لي عمرو بن العاص: أنا أميركم، إنما جئتم مدداً لي..

فقال له المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك، وأميرنا أبو عبيدة.

فقال عمرو:

ــ بل أنتم مددٌ لي.

فقلت:

ــ يا عمرو! إنَّ رسول الله ﷺ قال لي: لا تختلفا، وإنّك إن عَصَيْتَني أطعتُك.

فهتفنا: صادقة وأنا: الله أكبر.. الله أكبر.

وقلتُ أنا:

ــ ما هذه الأخلاق الرضيّة التي تتمتع بها يا سيّدي يا أمين هذه الأمة؟

وقالت صادقة: كذلك ينبغي أن يكون القادة، منكرين لذواتهم، لا همَّ لهم إلَّا نصرة المبدأ الذي يعتنقونه، والدين الذي يقاتلون دونه. .

وسألتُ أبا عبيدة رضي الله عنه عن سبب تسمية تلك الغزوة بذات السلاسل فقال:

ـ لأنّ المعركة وقعت في مكان يقال له السلاسل، كان فيه ماء، فسُمّيت بذات السلاسل.

صادق: ذكرتَ لنا يا سيّدي الغزوة التي أكرمكم الله فيها بحوت العنبر، ماذا كان اسم تلك الغزوة؟

أبو عبيدة: غزوة الخَبَط، وقلت لكم: الخَبَط هو ورق الشجر، وسميت بهذا الاسم، لأننا كنا لا نجد ما نأكل سوى أوراق الشجر.

صادقة (في ابتسام عذب): وجراب التمر.

أبو عبيدة (في ابتسام رائع): صحيح. . والتمرات التي زوَّدنا بها رسول الله. .

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: كم كان عددكم؟

أبو عبيدة: ثلاث مئة مجاهد، وكان فيهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم جميعاً.

صادق: معنى هذا أنّ أبا بكر وعمر كانا يشاركان في المعارك؟

أبو عبيدة: ما من أحد من أصحاب رسول الله لم يشارك في القتال في سبيل الله. . ثم. . من أين جاءتك هذه الفكرة؟

صادق: أيّ فكرة.

أبو عبيدة: أعني سؤالك عن مشاركة أبـي بكر وعمر في القتال؟

صادق: لأنني لم أسمع بوزير يقاتل.

صادقة: ما هذا يا صادق؟ هل تشبّه من تراهم وتسمع عنهم، بأبـي بكر وعمر؟

صادق: أستغفر الله.. لقد أخطأت.. أستغفر الله وأتوب إليه، فشتان ما بين الثريّا والثرى!.

أبو عبيدة: وشهدت فتح مكة، وكنتُ على مقدّمة موكب رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

أبو عبيدة: المؤلَّف من المهاجرين، كما شهدتُ المشاهدَ كلَّها مع الرسول الكريم..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: وبعد أن انتقل الرسول القائد إلى الرفيق الأعلى يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: كنت مع خليفة رسول الله، مع أبـي بكر مستشاراً أميناً، وجندياً مطيعاً، فعندما استشارني في جمع القرآن الكريم، أشرت عليه بجمعه، وعندما أراد توجيه جيوشه لفتح بلاد الشام، أشرت عليه بأنْ يبادر لفتحها.

صادقة: بل كنتَ معدوداً فيمن جمع القرآن العظيم يا عمّي العظيم.

صادق: قبل أن ننتقل إلى فتوح الشام، ودورك فيها، أريد أن تحدّثنا عن دورك يوم السقيفة.

أبو عبيدة: تعني سقيفة بني ساعدة؟

صادق: نعم.

أبو عبيدة: عندما سمعنا باجتماع الناس في سقيفة بني ساعدة، أسرعتُ وعمر بن الخطاب إليها، فما كان من أبـي بكر رضي الله عنه إلاَّ أن يقول لهم: رضيتُ لكم أحد الرجلين: عمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح أميراً، أمّا أبو عبيدة، فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لكلِّ أمّة أمين، وأمين هذه الأمة: أبو عبيدة بن الجراح» وأمّا عمر، فسمعتُه يقول: «اللهمّ أيّد الدين بعمر أو بأبـي جهل».

صادق: ثم ماذا يا سيّدي؟

أبو عبيدة: لم أقبلْ أن أتقدم على أبـي بكر وعمر، فأشرنا على الناس بأبـي بكر، وكذلك كان ولله الحمد.

صادق: وسيّدنا عمر؟ ألم يرشّحك للخلافة؟

أبو عبيدة: بلى.. وذلك أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، لما بلغ (سَرْغاً) وهي قرية بوادي تبوك من طريق الشام، وعرف أنّ في الشام وباءً شديداً قال: إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حيّ، استخلفْتُه، فإن سألني ربـي عزّ وجلَّ: لِمَ استخلفْتَه على أمّة محمد؟ قلت: إني سمعت رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

أبو عبيدة: يقول: إنّ لكلِّ نبـيّ أميناً، وأميني أبو عبيدة بن الجراح.

صادقة: والشيء بالشيء يُذْكِرُ يا عمّي.. فأنا أذكُرُ أنّ سيّدنا عمرَ قال لأصحابه يوماً: تمنَّوا!

فقـال رجـل: أتمنّـى لـو أنّ هـذه الـدارَ مملـوءة ذهبـاً أُنْفِقُـه فـي سبيل الله عزّ وجلّ.

فقال عمر: تمنَّوْا.

فقال رجل: أتمنى لو أنَّها مملوءةٌ لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً أنفقه في سبيل الله عزّ وجلّ، وأتصدّق به.

قال عمر: تمنّوا.

قالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لكنّي أتمنى لو أنَّ هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبـي عبيدة بن الجراح.

فقال رجل: ما آلَوْتَ الإسلام. (أي ما قصّرت عن الإسلام).

قال عمر: ذلك الذي أردت.

أبو عبيدة: (في إعجاب وهو ينظر إلى الأرض حياء): بوركتِ يا ابنتي، وغفر الله لعمر، فقد كان فذّاً بين الرجال.

صادق: هل فرحْتَ بنبأ استخلاف عمر يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: أولاً: حزنتُ حزناً شديداً على أبـي بكر، لأنه لم يكن له نظير في الرجال، وفرحتُ لأنَّ أبا بكر استخلفَ عمرَ بن الخطاب، فهو أحْرَصُ على المسلمين من أنفسهم، وقد كتبتُ له رسالة ناصحٍ أمين، شاركني في كتابتها، أخي الرائع: معاذُ بنُ جَبَل.

صادق: هل تُسْمِعُنا إياها يا سيِّدي؟

أبـو عبيـدة: حبّـاً وكـرامـة. . بسـم الله الـرحمـن الـرحيـم. مـن أبـي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل. إلى عمر بن الخطاب.

سلام الله عليك. فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أمّا بعدُ:

فإنّا عهدْناك وأمرُ نفسك لك مُهِمٌّ، وإنك ــ يا عمر ــ أصبحتَ وقد وُلِّيتَ أمْرَ أمَّةِ محمد، أحمرِها وأسودِها، يقعد بين يديك العدوُّ والصديق، والشريف والوضيع، والشديد والضعيف، ولكلٍّ عليك حقٌّ وحصّةٌ من العدل، فانظر كيف تكون يا عمر؟!.

وإنّا نذكّرك يوماً تبلىٰ فيه السرائر، وتُكْشفُ فيه العَوْرات، وتظهر فيه المخبّآت، وتعنو فيه الوجوه لملك قاهر قهرهم بجبروته، والناس له داخرون (أي أذلاّء) ينتظرون قضاءه، ويخافون عقابه، ويرجون رحمته.

وإنه قد بلغنا أنه يكون في هذه الأمة رجال إخوان العلانية، أعداء السريرة، وإنا نعوذ بالله من ذلك، فلا ينزل كتابُنا من قلبك بغير المنزلة التي أنزلناها من أنفسنا، والسلام عليك ورحمة الله.

صادق: الله أكبر. . ما هذه الرسالة يا سيِّدي أبا عبيدة؟!

إنها رسالة ناصح أمين، جريء في قول الحقّ، لا يخشى في الله لومة لائم.

صادقة: لأنّ عمّي أبا عبيدة، ومعاذ بن جبل من إخوان السريرة، وليسا من إخوان العلانية أعداء السريرة.

صادق: وهل غضب أمير المؤمنين عمر من هذه الرسالة؟

صادقة: ولماذا يغضب؟ ولو أنه كان يغضب من نصح الناصحين، لما ولّاه أبو بكر أمور أمّة محمد ﷺ.

صادق (لأبي عبيدة): هل أرسل إليك جواباً يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: وهل يملك عمر وغير عمر ألّا يردّ التحية بأحسنَ منها، أو بمثلها على أقلِّ تقدير؟

صادق: وهل رسالتكما تحية؟

صادقة: وتحيّة رائعة، نادرة في بابها، لا تسمعها ولا تراها إلّا عند عمّي أبي عبيدة.

صادقة: هل تسمعنا إياها يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: كما تحبّ يا صادق.. اسمع ما كتبه إلينا أمير المؤمنين عمر..

قال رضي الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم:

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل.

سلام الله عليكما، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد:

فإني أوصيكما بتقوى الله، فإنه رضاءُ ربّكما، وحظُّ أنفسكما، وغنيمة الأكياس (أي العقلاء) لأنفسهم عند تفريط العجزة.

وقد بلغني كتابكما، تذكران أنكما عهدتماني وأمرُ نفسي لي مهمّ، فما يدريكما؟ وهذه تزكية منكما لي.

وتذكران أني وُلّيتُ أمر هذه الأمّة، يقعد بين يديَّ الشريفُ والوضيع، والعدوُّ والصَّديق، والقويُّ والضعيف، ولكلٍّ حصّتُه من العدل، وتسألانني كيف أنا عند ذلك؟ وإنه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

وكتبتما تخوّفاني يوماً هو آتٍ، وذلك باختلاف الليل والنهار، فإنهما يُبْليان كلَّ جديد، ويقرّبان كلَّ بعيد، ويأتيان بكلّ موعود، حتى يأتيا بيوم القيامة، يوم تبلى السرائر، وتُكشف العورات، وتعنو فيه الوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته، فالناس له داخرون (أذلاّء) يخافون عقابه، وينتظرون قضاءه، ويرجون رحمته.

وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون في هذه الأمّة رجال يكونون إخوان العلانية، أعداء السريرة، فليس هذا بزمان ذلك، فإنّ ذلك يكون في آخر الزمان، إذا كانت الرغبة والرهبة رغبة الناس ورهبتهم، بعضهم إلى بعض.

والله ــ عزَّ وجلَّ ــ ولاّني أمركم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسني عنه، كما حرسني عن غيره، وإني امرؤ مسلم، وعبدٌ ضعيف، إلاَّ ما أعان اللَّهُ عزَّ وجلَّ، ولن يغيّر الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله، وإنما العظمة لله عزَّ وجلَّ، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولنَّ أحدٌ منكم: إنّ عمر قد تغيّر منذ وَلِيَ، وإني أعقل الحقَّ من نفسي، وأتقدّم وأبيّن لكم أمري، فأيُّما رجل كانت له حاجة، أو ظُلم مظلمةً، أو عَتَبَ علينا في خُلُق، فَلْيُؤَدِّني،

فإنما أنا رجلٌ منكم، ليس بيني وبين أحد من المسلمين هوادة، وأنا حبيبٌ إليَّ صلاحُكم، عزيزٌ عليّ عتبُكم، وأنا مسؤول عن أمانتي، وما أنا فيه، ومطّلع على ما يضيرني بنفسي إن شاء الله، لا أكِله إلى أحد، ولا أستطيع ما بعد ذلك إلاَّ بالأمناء وأهل النصح منكم للعامّة، ولستُ أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله.

وما سلطانُ الدنيا وإمارتُها؟ فإنّ كلَّ ما تريان يصير إلى زوال، وإنما نحن إخوان، فأيُّنا أمَّ أخاه، أو كان عليه أميراً، لم يضرَّه ذلك في دينه ولا في دنياه، بل لعلّ الوالي، أن يكون أقربَهما إلى الفتنة، وأوقعَهما بالخطيئة، إلاَّ من عصم الله، وقليل ما هم.

وعندما سكت أبو عبيدة هتفتُ:

ــ الله أكبر.. ما هذا الجواب السديد المحكم؟

لقد ردّ على رسالتكما، يا سيِّدي، فِقْرةً فقرة، وكان في منتهى الصراحة والوضوح، وكان عبداً متذللاً لله، مُوَطَّأ الأكناف للمسلمين، إنساناً متواضعاً في غير ضعف، شديداً في لين، ألا ما أروعك يا أمير المؤمنين، يا خِرّيج مدرسة محمد ﷺ.

وقالت صادقة:

ــ هكذا يكون القادة والرجال.. وبأمثالكم يا عمي تُفتح الدنيا كلُّها وأبواب الجنان في الآخرة، فلقد كنتما الناصحَيْنِ، وكان المتقبِّلَ لنصائحكما.. ماأروعَكم يا أصحابَ رسول الله ﷺ.. وما أروعَك يا عمّاه! وما أصدقَ رسولَ الله ﷺ عندما امتدحك وأخويك فقال: «نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح».

وعندما سئلت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

ــ أيُّ أصحاب رسول الله ﷺ كان أحبَّ إليه؟

قالت: أبو بكر.

قيل: ثمَّ مَنْ؟

قالت: أبو عبيدة بن الجراح.

فقاطعها أبو عبيدة بقوله:

ــ مَهْ يا ابنتي، فأنت تتحدّثين بحضور العبد الفقير القليل: أبـي عبيدة.

صادقة: معذرة ياسيِّدي، فقد تذكّرتُ شيئاً أستسمحُك في روايته.

أبو عبيدة: على ألاّ يكون فيها إطراء لعمّك أبـي عبيدة!

صادقة: تسمعون، ثم تحكمون يا سيِّدي، ويا عمي الفاضل.

أبو عبيدة: تفضلي يا صادقة!.

صادقة: قال جابر بن عبد الله: كنتُ في الجيش الذين مع خالد، الذين أمدَّ بهم أبو بكر رضي الله عنه، أبا عبيدة وهو محاصِرٌ دمشق، فلما قدِمْنا عليهم، قال أبو عبيدة لخالد:

ــ تقدَّمْ فصلِّ، فأنت أحقُّ بالإمامة، لأنك جئتَ تُمِدُّني.

فقال خالد:

ــ ما كنتُ لأتقدَّمَ رجلاً سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«لكلِّ أمةٍ أمين، وأمين هذه الأمة، أبو عبيدة بن الجراح».

صادق: الله أكبر.. ما أروعك يا سيّدي أبا عبيدة!. ما أروعك يا سيف الله المسلول، يا خالد بن الوليد!.

صادقة: وقال أبو حِسْبَة مسلم بن أكيس عن أبـي عبيدة:

ذكر لي من دخل على أبـي عبيدة فوجده يبكي، فقال:

ــ ما يبكيك يا أبا عبيدة؟

قال أبو عبيدة:

ــ يُبكينـي أنّ رسـول الله ﷺ ذكـر يـومـاً مـا يفتـح الله علـى المسلمين، حتى ذكر الشام فقال:

«إن نَسَّأَ (أي أطال) اللَّهُ في أجلك، فحَسْبُك من الخدم ثلاثة: خادمٌ يخدمك، وخادم يسافر معك، وخادم يخدم أهلك. وحسبُك من الدوابِّ ثلاثة: دابّةٌ لرحلك، ودابّةٌ لِثقَلِك، ودابّة لغلامك».

ثم ها أنا ذا أنظر إلى بيتي قد امتلأ رقيقاً (أي عبيداً) وإلى مِـرْبَطـي (أي إصطبلـي) قـد امتـلأ خيـلاً، فكيـف ألقـى رسـول الله ﷺ بعدها؟ وقد أوصانا بقوله:

«إنّ أحبّكم إليّ، وأقربكم مني، من لقيني على مثل الحال التي فارقْتكُم عليها».

كنت أراقب أبا عبيدة رضي الله عنه، وهو مطرق يستمع إلى حديث أختي صادقة، فلمحتُه يمسح دمعتين بطرف كفّه اليمنى، ثم قال:

ــ ألا ننتقل إلى حديث آخر؟ أم ليس عندكما ما تبحثانه من موضوعات؟

صادقة: بلى يا سيّدي، لدينا الكثير، ولكن، بعد أن أروي لكما هذا الحديث الشريف عن رسول اللَّهِ. .

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: قال رسول الله ﷺ:

«ما من أصحابـي أحدٌ إلاَّ لو شئتُ أخذتُ عليه، إلاَّ أبا عبيدة».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«أخلاّئي من أصحاب رسول الله ﷺ ثلاثة: أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة».

أبو عبيدة: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله. . سامحكِ الله يا ابنتي، فقد قطعتِ عنقي اليوم.

صادقة: حاشاك يا عمّي، فأنت القائد العفيف الزاهد، أنت أمين هذه الأمة.

صادق: هل تولّيتَ عملاً في عهد الخليفة الصدّيق يا سيّدي؟

أبو عبيدة: ولاّني أبو بكر على أموال المسلمين، ثم بعث بـي قائداً لأحد جيوشه التي وجّهها إلى بلاد الشام.

صادق: هل استشارك الصّدّيق في فتح بلاد الشام يا سيّدي؟

أبو عبيدة: استشارني كما استشار غيري من أهل الحلّ والعقد.

صادق: هل تروي لنا ذلك؟

أبو عبيدة: نشَّطْتَني بإثارة هذا الموضوع يا صادق. .

دعا أبو بكر مستشاريه: عمر وعثمان وعليّاً وطلحة والزبير،

وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن أبي أوفى الخزاعي، وأبا عبيدة، ووجوه المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدراً، ومن غيرهم، فاجتمعوا لديه، فقال لهم:

«إنّ الله تبارك وتعالى لا تُحصى نعمُه، ولا تبلغ الأعمال جزاءها، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم من جمع كلمتكم، وأصلحَ ذاتَ بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع في أن تشركوا بالله، ولا أن تتخذوا إلاهاً غيره، فالعرب اليوم أمّة واحدة، بنو أبٍ وأمّ.

وقد أردتُ أن استنفركم إلى الروم بالشام، ليؤيّد الله المسلمين، ويجعل الله كلمته العليا، مع أن للمسلمين في ذلك الحظَّ الأوفر، فمن هلك هلك شهيداً، وما عند الله خيرٌ للأبرار. ومن عاش عاش مدافعاً عن الدين، مستوجباً على الله عزَّ وجلَّ ثوابَ المجاهدين».

وختم الصدّيق كلامه بقوله:

«هذا رأيي الذي رأيت، فلْيُشِرْ عليَّ كلُّ امرىءٍ بمبلغ رأيه».

فقام عمر رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على النبيّ ﷺ، ثم قال:

«الحمد لله الذي يخصُّ بالخير من يشاء من خلقه.

والله ما استبقنا إلى شيء من الخير إلاَّ سبقتنا إليه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قد ــ والله ــ أردتُ لقاءك لهذا الأمر الذي ذكرت، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرتَه الآن، فقد أصبتَ، أصاب اللَّهُ بك سُبُلَ

الرَّشاد.. سرِّبْ إليهم الخيلَ في إثْر الخيل، وابعث الرجال تتبعها الرجال، والجنود تتلوها الجنود، فإنّ الله عزَّ وجلَّ ناصر دينه، ومُعِزٌّ الإسلام وأهله، ومنجزٌ ما وعدَ رسولَه».

صادق: الله أكبر.. ما أبعدَ نظرتَك يا سيِّدي يا ابن الخطّاب!..

أبو عبيدة: وقام عبد الرحمن بن عوف فقال:

«يا خليفة رسول الله!.

إنّها الروم وبنو الأصفر، حدٌّ حديد، وركنٌ شديد.

ووالله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاماً، ولكن تبعث الخيل، فتغير في أدنى أرضهم، ثم تبعثها فتغير، ثم ترجع إليك، فإذا فعلوا ذلك مراراً، أضرُّوا بعدوّهم، وغنموا من أرضهم، فَقَوُوْا بذلك على قتالهم.

ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن، وإلى ربيعةَ ومُضَرَ، فتجمعهم إليك، فإن شئتَ ـ عند ذلك ـ غزوتَهم بنفسك، وإن شئتَ بعثتَ على غزوهم غيرك».

صادق: وماذا كان رأيك يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: لا تستعجل يا بنيّ، فأنا أروي لك ما جرى..

ثم قام عثمان بن عفان، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبيّ ﷺ ثم قال:

«رأيي أنك ناصح لأهل هذا الدين، وعليهم شفيق، فإذا رأيتَ رأياً، علَّمتَهم رشداً وصلاحاً وخيراً، فاعزم على إمضائه غير ظنينٍ ولا متَّهم».

فقلتُ أنا وطلحة والزبير وسعد وسعيد بن زيد والحاضرون:

«صدق عثمانُ فيما قال.. ما رأيتَ من رأيٍ فأمْضِه، فإنّا سامعون لك مطيعون، لا نخالف أمرك، ولا نتّهم رأيك، ولا نتخلف عن دعوتك».

صادق: لم تذكر لنا رأي سيِّدنا عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه!.

أبو عبيدة: صدق الله العظيم.. وخُلِقَ الإنسان عجولاً!.

صادق: معذرةً يا سيّدي!.

أبو عبيدة: نظر أبو بكر فرأى عليّاً صامتاً، فصاح به:

«ما ترى يا أبا الحسن؟».

قال عليّ: أرى أنّك مبارك الأمر، ميمون النقيبة، وأنّك إن سرتَ إليهم بنفسك، أو بعثتَ إليهم، نُصرتَ إن شاء الله.

صادق: وماذا كان تعليق الصدّيق يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: فقال أبو بكر: بشّرك الله بخير، فمن أين علمتَ هذا؟

قال عليّ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«لا يزال هذا الدين ظاهراً على كلِّ من ناوأه، حتى يقوم الدين وأهله ظاهرين».

قال أبو بكر: سبحان الله! ما أحسن هذا الحديث!. لقد سررْتَني سَرَّكَ الله في الدنيا والآخرة.

صادقة: معنى هذا، أنّ الصحابة المستشارين وافقوا أبا بكر رضي الله عنه على الشروع في فتح بلادالشام، وتخليصها من الاستعمار البيزنطي.

صادق: في الوقت الذي كانوا يعالجون فتح العراق، وتخليصه من الاستعمار الفارسيّ.

أبو عبيدة: وخرج أبو بكر إلى المسلمين، وقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه ثم قال:

«أيُّها الناس!.

إنّ الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأعزّكم بالجهاد، وفضّلكم بهذا الدين على أهل كلّ دين، فتجهّزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإني مؤمّرٌ عليكم أمراء، وعاقدٌ لهم عليكم، فأطيعوا ربّكم، ولا تخالفوا أمراءكم، ولتحسُنْ نيّتكم وسيرتكم وأطعمتكم، فإنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون».

صادق: أبو بكر رضي الله عنه يا سيّدي، يسير حسب قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وقد شاوركم ﴿فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله﴾ وقد عزم وتوكل، وطلب من المسلمين طاعتهم ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

صادقة: ثم ماذا يا سيِّدي؟ ماذا كان ردّ الناس على هذه الدعوة؟ هل كانت استجابتهم سريعة؟

أبو عبيدة: والله ما أجابه أحد منهم، هيبةً لغزو الروم، لما يعلمون من كثرة عددهم، وشدّة شوكتهم.

صادق: وعمر؟ أين كان الرجل المهيب عمر يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: كان هناك طبعاً، فقام وقال:

«يـا معشـر المسلميـن! مـالكـم لا تجيبـون خليفـة رسـول الله إذا دعاكم لما يُحْييكم؟

أمَا لو أنه كان عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً لابتدرتموه».

فقام عمرو بن سعيد فقال:

ـ يا ابن الخطاب، أوَلنا تضرب الأمثال، أمثال المنافقين؟

فما منعك ممّا عبتَ علينا فيه، أن تبتدىء به؟

فقال عمر:

ـ إنه يعلم أنّي أجيبه لو يدعوني، وأغزو لو يُغْزيني.

قال عمرو بن سعيد:

ـ ولكنْ نحن لا نغزو لكم.. إنْ غَزَوْنا فإنّما نغزو لله.

قال عمر:

ـ وفّقك الله فقد أحسنت.

فقال أبو بكرٍ لعمرو بن سعيد:

ـ اجلس رحمك الله، فإنّ عمر لم يرد بما سمعتَ أذى مسلم ولا تأنيبَه، إنما أراد بما سمعت أن ينبعث المتثاقلون إلى الأرض، إلى الجهاد.

فقام خالد بن سعيد فقال:

ـ صدق خليفة رسول الله ﷺ، اجلس أيْ أخي (يعني يا أخي).

فجلس عمروٌ، واستمر خالدٌ يقول:

ـ الحمد لله الذي لا إله إلاَّ هو الذي بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون، فإنَّ الله منجز وعده، ومعزّ دينه، ومهلك عدوّه.

ثم أقبل على أبـي بكر فقال:

ـ نحن غير مخالفين لك، ولا متخلّفين عنك، وأنت الوالي الناصح الشفيق، ننفر إذا استنفرتَنا، ونطيعك إذا أمرتنا، ونجيبك إذا دعوتَنا.

فَسُرَّ أبو بكر وقال له:

ـ جـزاك الله مـن أخٍ وخليـلٍ خيـراً، فقـد أسلمـتَ مـرتغبـاً، وهـاجـرتَ محتسبـاً، وهـربـتَ بـدينـك مـن الكفـار، لكـي يطـاع اللَّـهُ ورسولُه، وتكون كلمة الله هي العليا.. وأنت أمير الناس، فتيسَّرْه رحمك الله.

صادق: لم أفهم معنى العبارة الأخيرة يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: أي تيسَّرْ للخروج وتجهَّزْ له.

صادق: ثم ماذا أرجوك؟ فقد بلغت القلوبُ الحناجر.

أبو عبيدة: تجهّز خالد بن سعيد بأفضل العدّة، ثم رجع إلى أبـي بكر، وعنده المهاجرون والأنصار في أكبر جمع، فسلّم على أبـي بكر، ثم قال له:

ـ واللَّهِ لأَنْ أَخِرَّ من حالق (أي من جبل مرتفع) أو تخطفني

الطير في الهواء بين السماء والأرض، أحبُّ إليَّ من أن أبطىء عن دعوتك، أو أخالف أمرك. فواللَّهِ ما أنا في الدنيا راغب، ولا على البقاء فيها بحريص. وإني أُشْهِدُكم أني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي، حبيسٌ في سبيل الله، نقاتل المشركين أبداً، حتى يهلكهم الله، أو نموت عن آخرنا.

صادق: الله أكبر.. ما أروع هذا الكلام!. ثم ماذا يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: فقال له أبو بكر خيراً، ودعا المسلمون له بخير، وكان مما قاله له أبو بكر:

ـ إن ما نرجو، أن تكون من نُصَحاء الله في عباده، بإقامة كتابه، واتّباع سُنّة نبيّه ﷺ.

صادق: ما أعظم تلك الروح التي كانت تسود المسلمين!..

لقد استطعتَ يا سيِّدي أن تنقل إلينا أجواءهم المتراحبة، أو أنك استطعت أن تنقلنا إلى تلك الأجواء الرحيبة المتسامية، بهذا الحوار البديع البديع.

صادقة: ثم ماذا يا سيِّدي؟ فقد أثرتَ شجوننا وشؤوننا يا عمّي العظيم.

أبو عبيدة: ثم أراد أبو بكر أن يبعثني على رأس جيش إلى بلاد الشام، وأمرني بمدينة حمص، وكان أبو بكر قد أمرني بأن أعسكر خارج المدينة المنورة، لأتلقى المجاهدين القادمين من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ من بلاد العرب عامة، ومن اليمن السعيد خاصة، وكنت أصلي بهم في المعسكر، ثم وجّهني أبو بكر فيمن وجّه إلى بلاد الشام

من قادة الجيوش، وحدّد وجهة كلّ جيش، فنزلت أنا في الجابية، ونزل شرحبيل بن حسنة في الأردن، ونزل عمرو بن العاص في فلسطين، ونزل يزيد بن أبي سفيان في الشام، وأصدر أبو بكر أمره إلى أولئك القادة، وكان نصّ الأمر:

«إذا اجتمعتم على قتال، فأميركم أبو عبيدة».

صادق: كم مجاهداً كان في جيشك يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: سبعة آلاف وخمس مئة مجاهد مقاتل.

صادقة: وكم كان عدد المجاهدين الذين توجّهوا لفتح بلاد الشام؟

أبو عبيدة: سبعة وعشرين ألفاً.

صادق: ما شاء الله..

صادقة: بماذا أوصاكم الخليفة أبو بكر يا عمّي؟

أبو عبيدة: قال لي أبو بكر:

وأجهش أبو عبيدة في البكاء، ثم هدأ وقال:

أبو عبيدة: قال لي أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه:

«اسمعْ سماعَ من يريد أن يفهم ما قيل له، ثم يعمل بما أُمِرَ به.. إنك تخرج في أشراف الناس، وبيوتات العرب، وصُلحاء المسلمين. وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحميّة، وهم اليوم يقاتلون على الحِسْبة والنيّة الحسنة.

أحسنْ صحبة مَنْ صَحِبَك، وليكن الناس عندك في الحق سواءً،

واستعن بالله، وكفى بالله معيناً، وتوكّلْ على الله، وكفى بالله وكيلاً. . اُخْرُجْ من غدٍ إن شاء الله».

صادق: الله أكبر!. ما أروع هذا الكلام!.

أبـو عبيـدة: خـرجـتُ مـن عنـد الخليفـة العظيـم، فلمّـا مضيـتُ ناداني، فرجعت إليه، فقال لي، ومعذرةً لما أنقل فهو كلام أعظم رجل بعد رسول الله. . قال لي: «يا أبا عبيدة!. إني قد رأيتُ منزلتك من رسول الله ﷺ، وتفضيله إياك، ما أحبُّ أن تعلم كرامتك عليّ، ومنزلتك منّي. والذي نفسي بيده ما على الأرض رجلٌ من المهاجرين ولا من غيرهم أعدله بك ولا بهذا ـ مشيراً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ ولا له من منزلة مني، إلاَّ دون مالَكَ.

فهتفنا أنا وصادقة: الله أكبر. . الله أكبر. . ما أعمق هذه الثقة، وما أعظم هذا الحبَّ!.

أبو عبيدة: ثم انصرفتُ إلى معسكري، فلمّا كان الغد، جاءني أبو بكر يمشي في رجال من المسلمين، ثم سار معي، حتى بلغ ثنيّة الوداع، فقال لي موصياً:

«يا أبا عبيدة!. اعملْ صالحاً، وعش مجاهداً، وتوفَّ شهيداً، يُعطِك الله كتابك بيمينك، ولتقرَّ عينُك في دنياك وآخرتك، فوالله إني لأرجو أن تكون من التوّابين الأوّابين الخاشعين الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة. . إنّ الله قد صنع بك خيراً وساقه إليك، إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين، إلى عدوِّه من المشركين. فقاتلْ مَنْ كفر بالله، وأشركَ به، وعَبَدَ معه غيرَه».

صادق: وماذا كان موقفك من هذه الوصية الرائعة؟ هل أجبتَه بشيء؟

أبو عبيدة: أجبتُه بقولي:

«رحمك الله يا خليفة رسول الله. فَلْأَشْهَدْ بفضلك في إسلامك ومناصحتك لله ولرسوله، ومجاهدتك بعد رسول الله ﷺ، مَنْ تولّى عن دين الله، حتى ردَّهم الله بك إلى الدين صاغرين، ونشهد أنّك رحيم بالمؤمنين، ذو غلظة على الكافرين، فبارك الله لك فيما علَّمك، وسدّدك فيما حملك، فإني إنْ أَكُ صالحاً، فلربي المنّة عليَّ بصلاحي، وإنْ أكُ فاسداً فهو وليُّ صلاحي، وأمّا أنت، فإنّا نرى لك من الحقّ علينا، أن نجيبك إذا دعوتَنا، وأن نطيعك إذا أمرتَنا».

صادق: الله أكبر.. كيف نرقىٰ إلى سمائكم يا أجدادنا العظماء؟ كيف؟

صادقة: أرجو يا صادق، أن تترك القائد العظيم يتمّ حديثه بلا مقاطعة.

صادق: أعدُكِ إن استطعتُ، فأنا أسمع كلاماً، وكأني أشهد مواقف سامقة، سامقة، سامقة، فهل أنتِ معي في هذا يا أختي؟

صادقة: وأكثر من هذا يا أخي. (لأبي عبيدة): ثمّ ماذا يا عمّي أرجوك؟

أبو عبيدة: ثم أخذ كلُّ واحد منا بيد صاحبه، فودّعه ودعا له، ثم تفرّقنا الفراق الذي لا لقاء بعده إلاّ في الفردوس الأعلى إن شاء الله تعالى. واستدار أبو بكر عائداً إلى المدينة، ومضيتُ مع الجيش إلى بلاد الشام.

ولاحظتُ دمعتين فرّتا من عيني أبـي عبيدة، فسألته:

صادق: ما يبكيك يا سيِّدي القائد؟

أبو عبيدة: نظر أبو بكر إلى أبـي قتادة الأنصاري، وهو على جواده، وقال له:

«يا أبا قتادة. الحقْ أبا عبيدة بن الجراح، فأبلغْه مني السلام، وقـل لـه: أوصيـك بـأخيـك معـاذ خيـراً. لا تقطعـنَّ أمـراً دونـه، فـإنـه لن يألُوَك نصحاً ورشداً، وانظر خالد بن سعيد بن العاص، فاعرفْ له من الحقّ إذ وليتَ عليه، مثلَ ما كنتَ تحبُّ أن يعرفه لك لو خرج واليـاً عليـك، وقـد اختـار الخـروج معـك علـى ابـن عمِّـه يـزيـد بـن أبـي سفيان، وعلى غير ابن عمّه. وإذا حَزَبَكَ أمرٌ مهمٌّ تحتاج فيه إلى مشورة ذي الرأي النقيّ الناصح، فاستشرْه، واسمعْ منه، فإني لا أعلمه إلاَّ سيِّدَ مَنْ مَعَكَ من المسلمين».

صادق: كيف يكون خالد بن سعيد سيِّدَ مَنْ مع أبـي عبيدة يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: لعله قصد أن خالداً استعمله رسول الله ﷺ على اليمن، وكان أكثرُ جيشي من أهل اليمن.. ثم إنّ خالداً من سادة قريش، والعرب تسمع وتطيع لقريش، وربما قصد الصّدّيق شيئاً آخر.

صادق: وهل أجبتَه على رسالته يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: طبعاً أجبتُه.. قلت لأبـي قتادة:

ــ «أبلغْه عني السلام، وقل له: إنّ الرجلين اللذين أوصيتَني بهما كما ذكرتَ في فضلهما ونصحهما للمسلمين، وأنا مُنْزِلُهما مني

بالمنزلة التي أمرتَني. وليتك ــ رحمك الله ــ أوصيتَهما بـي، كما أوصيتَني بهما، فإني إليهما أحوج منهما إليّ».

صادق: وهل أجابك الخليفة يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: قال أبو بكر رضي الله عنه:

ــ «أمّا هذا فلم أغفله. قد أوصيتُهما بمؤازرته، ومناصحته، والمشـورة عليـه فيمـا يـريـان لـه فيـه وللمسلميـن صـلاحـاً. ولـو أنـي لـم أوصهمـا لـرجـوتُ ألاَّ يـدعـا النصيحـة للمسلميـن، والنظـر لهـم، والشفقة عليهم في موطن من مواطنهم، ولا في شيء حضراه من أمورهم. ولكن علينا من الحقِّ الوصاة لهم بما يصلحهم، ويجمع الله به أمرهم.»

صادق: رحمك الله أيها الخليفة العظيم، فما كانت لتفوتك فائتة.

صـادقـة: نعـود يـا سيِّـدي الجليـل إلـى مسيـرك إلـى الشـام إذا سمحت!

أبو عبيدة: كان هرقل قد جمع جموعاً هائلة، وأراد أن يشغل بعـض قـادة المسلميـن عـن بعضهـم الآخـر، بمـا عنـده مـن الجنـود، ولـم نكن سوى سبعة وعشرين ألفاً كما قدّمت.

صادق: عفواً سيّدي، أريد أن أسجل تاريخ خروجكم من المدينة المنورة، إلى بلاد الشام المباركة.

أبو عبيدة: كان خروجي في السابع من شعبان عام ١٢هـ.

وقد ذكرتُ لكم ما بعث به أبو بكر إلى أمراء الجنود. . قال لنا:

«إني باعثكم في هذا الوجه. ومؤمِّرُكم على هذه الجنود، وأنا موجِّهٌ مع كلِّ رجل منكم من الرجال ما قَدَرْتُ عليه، فإذا قَدِمْتُم البلد، ولقيتم الجنود، واجتمعتم على قتالهم، فأميرُكم أبو عبيدة بن الجراح، وإن لم يَلْقَكم أبو عبيدة، وجمعتكم حرب، فأميرُكم يزيد بن أبي سفيان».

صادق: يقولون عندنا يا سيِّدي: الكثرةُ تغلب الشجاعة!.

أبو عبيدة: ولذلك، هابهم المسلمون باديءَ ذي بَدْء.

صادقة: هذا لأنّ لكلِّ داخلٍ دهشة يا عمّي، والمسلمون دخلوا تلك الديار لأول مرة مقاتلين، وكانت أنباء انتصارات الروم على الفرس وجيوش كسرى تملأ الآفاق، ولذلك هابهم المسلمون.

أبو عبيدة: أحسنتِ التحليل والتعليل يا ابنتي يا صادقة، ثم إنّ المسلمين تجرّؤوا عليهم بعد أول منازلة.

صادقة: وكذلك كان حال المسلمين الذين توجّهوا لتحرير العراق من الاستعمار الفارسي.. كانوا في البداية يهابون لقاء الفرس، ثم ما لبث القائد العظيم المثنى بن حارثة الشيباني أن جرّأهم على الفرس، فوَطِئُوا المجوسَ ونارَهم بأقدامهم، وبسنابكِ خيولهم.

أبو عبيدة: لا يكاد ينقضي عجبي من سعة اطلاعك على تاريخنا، وتحليلك لعدد من المواقف يا صادقة.

صادقة: لأنني حفيدتكم يا جدّي العظيم.. حفيدة عظماء الدنيا بأسرها ولا فخر!.

ثم التفتتْ إليّ صادقة وقالت:

صادقة: هل تترك عمَّنا القائد، يحدّثنا عن مسيره إلى الشام يا صادق؟

صادق: قلت لكِ: إن استطعت.

صادقة: تستطيع يا أخي إذا حزمْتَ أمرك وعزمتَ، فالإنسان بإرادته. نعم يا عمّي!.

أبو عبيدة: سرتُ من المدينة حتى مررت بوادي القرى، ثم طلعتُ إلى الحِجْر، أي مدائن صالح عليه السلام، ثم إلى ذات المنار، ثم إلى زيزا، ومنها سرتُ إلى مآب بعمّان، فتصدّتْ لي قوة من الروم، فالتحمنا بها، حتى أدخلناها مدينتهم، وحاصرناهم فيها، فطلب منا أهل مآب الصلح، فصالحناهم، فكانت مآب أول مدن الشام يصالح أهلها المسلمين، ثم سرت إلى الجابية.

صادق: هذا أول الغيث.

أبو عبيدة: وهو بُشرى من بُشْرَيَاتٍ كثيرةٍ بالنصر على المشركين.

صادقة: ذكرتم يا عمّي أنّ هرقل حشد لكم حشوداً هائلة.

أبو عبيدة: أجل يا ابنتي، فكتبنا إلى عمرو بن العاص نستشيره.

صادق: تنفيذاً لمبادىء هذا الدين العظيم.

أبو عبيدة: أجل.. فأشار علينا بأن نجتمع، فإذا اجتمعنا فلن نُغلب من قلّة.

صادق: رأي صائب.

صادقة: سيِّدي عمرو بن العاص قائد محنَّك، وحكيم مجرِّب، يقاتل بعقله قبل أن يقاتل بسيفه.. ألستَ معي في هذا يا عمي؟

أبو عبيدة: ولذلك استشرناه، كما استشرنا الخليفة أبا بكر، وطلبنا منه المدد، فأشار علينا كما أشار ابن العاص، وكتب إلينا يقول:

ــ «اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصرٌ من نصره، وخاذلٌ من كفره، ولن يُؤتىٰ مثلكم من قلّة، وإنما يُوتىٰ العشرة الآلاف والزيادة على العشرة الآلاف إذا أُتُوا فمن تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصلِّ كلُّ رجل منكم بأصحابه.

صادق: كلام سليم.. ثم ماذا يا سيّدي؟

أبو عبيدة: لمّا علم هرقل باجتماعنا في اليرموك، كتب إلى قواده أن يجتمعوا لنا، وبيَّنَ لكل قائد مكانه من الجيش.. من يكون على المقدمة، ومن يكون على الميمنة، ومن يكون على الميسرة، ومن يكون على الساقة، ومن يكون القائد العام..

صادق: ما معنى الساقة يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: الساقة: مؤخرة الجيش.

ونفّذ القادة أوامر ملكهم، ونزلوا في الواقوصة، وهي على ضفة نهر اليرموك، وصار الوادي خندقاً لهم، فنزلنا بحذائهم، وعلى طريقهم، وليس لهم طريق غيره، فقال عمرو بن العاص:

ـ أيُّها الناس أبشروا، حُصِرَت، واللّهِ، الرومُ، وقلَّما جاء محصور بخير.

صادقة: يا سلام.. ما أروع هذا الكلام.. ما أروع هذا الكلام.. يا له من ذكيّ ألمعيّ بعيد النظر!.

صادق: كلام سديد..

أبو عبيدة: وأقمنا على هذه الحال ثلاثة أشهر، شهر صفر، وشهري ربيع، من السنة الهجرية الثالثة عشرة.

صادق: والمدد؟ ألم تستمدّوا الخليفة؟

أبو عبيدة: بلى.. واستجاب لنا، وأرسل إلى خالد بن الوليد في العراق، أن يأتي مدداً لنا، ومعه نصف جيش العراق، وقال الخليفة الصّدّيق:

«واللّهِ لأُنْسِيَنَّ الرومَ وساوسَ الشيطان، بخالد بن الوليد».

صادق: وجاءكم خالد مسرعاً.

صادقة: وكان اختيار الخليفة أبي بكر لخالد توفيقاً عظيماً من الله تعالى.

أبو عبيدة: وخاصة أنه تمكّن من الحضور قبل نشوب المعركة الفاصلة، وكان صاحب الصدمة الأولى، ثم تتابعت الفتوح، وكان التحرير.

صادق: كم كان عددكم يا سيّدي؟

أبو عبيدة: بمجيء خالد وجيشه، صرنا ستة وثلاثين ألف مجاهد.

صادق: والروم؟

أبو عبيدة: والروم ومن كان معهم من نصارى العرب ومشركيهم، أكثر من مئتي ألف مقاتل. بعضهم قدّر جيش العدو بمئتين وأربعين ألفاً، وبعضنا قال: إنهم يزيدون عن ثلاث مئة ألف، وآخرون قالوا إنهم أربع مئة ألف مقاتل..

صادق: يعني.. كانوا أضعاف عددكم بكثير.

أبو عبيدة: آه لو سمعك سيف الله خالد، إذن لأوجعك بقوارع كلامه!.

صادقة: ولكنّ الإيمان غلّاب يا صادق!.

أبو عبيدة: عندما سمع خالد رجلاً من المسلمين يقول:

ـ ما أكثر الروم، وما أقلَّ المسلمين!.

انتهره خالد وقال له:

ـ بل قل: ما أقلَّ الروم وما أكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقلّ بالخذلان! ولوددتُ أنّ فرسي الأشقر بريء من تَوجِّيه، (أي من المرض الذي لحق بحوافره) وقد أضعف الروم جيوشهم!.

فهتفنا أنا وصادقة:

ـ الله أكبر.. الله أكبر!.

أبو عبيدة: حسب أوامر أبي بكر، كنت القائد العام لجيوش المسلمين في بلاد الشام، فبثثتُ عيوني (أي أرسلت جواسيسي) في كل مكان، ثم عادوا إليّ، وأخبروني بجموع الروم، وبخطاب هرقل

(ملكهم) فيهم، ورأيت ألاَّ أكتم شيئاً عمن معي من المجاهدين، فدعوت رؤوس المسلمين، وذوي الهيأة والصلاح منهم، لأستشيرهم، وأسمع آراءهم..

قلت لهم:

«أمّا بعد. فإنّ الله عزَّ وجلَّ وله الحمد، قد أبلاكم أيها المؤمنون بأحسن البلاء عندكم، وصدقكم الوعد، وأعزّكم بالنصر، وأراكم في كلّ موطن ما تُسَرّون به.

وقد سار إليكم عدوُّكم من المشركين بعدد كثير، ونفروا إليكم ـ فيما حدّثني عيوني ـ نفير الروم الأعظم، فجاؤوكم برّاً وبحراً، حتى خرجوا إلى صاحبهم بأنطاكية.

ثمّ قد وجَّه إليكم ثلاثة عساكر، في كلّ عسكر منها ما لا يحصيه إلاّ الله من البشر.

وقد أحببتُ ألاَّ أغرّكم من أنفسكم، وألاّ أطوي عنكم خبر عدوّكم، ثم تشيرون عليّ برأيكم، وأشير عليكم برأيي، فإنما أنا كأحدكم».

صادق: وماذا كان ردّ القادة يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: التصميم على القتال، فهم كانوا يرون الروم وجموعهم والأمداد التي تأتيهم، ومع ذلك، كان ينبغي أن أستشيرهم.

صادقة: وخالد؟

أبو عبيدة: كان خالد ساكتاً يسمع آراء ذوي الرأي، وكنّا إذا

كانت شديدة أو نائبة، فإليه وإلى رأيه نفزع، وكان خالد لا يهوله شيء من أمر الروم، وكأنه كان لا يزداد بما يبلغه عن الروم إلاَّ جرأة عليهم، وحرصاً وعلى قتالهم ومهاجمتهم. فقلت له:

ــ يا خالد. ماذا ترى أنت؟

قال خالد:

ــ أرى، والله، إن كنّا إنما نقاتل بالكثرة والقوة، فهم أكثر منا، وأقوى علينا، ومالنا بهم إذن طاقة، وإن كنا إنما نقاتلهم بالله ولله، فما أرى جموعهم، ولو كانوا أهل الأرض جميعاً، أنّها تغني عنهم شيئاً.

صادقة وصادق: الله أكبر.. الله أكبر.

أبو عبيدة: ثم غضب خالد وقال لي:

ــ أتطيعني أنت فيما آمرك به؟

فقلت، وكلّي ثقة بخالد: نعم.

قال خالد:

ــ فولّني ما وراء بابك، وخلِّني والقوم، فإني لأرجو أن ينصرني الله عليهم.

صادق: فماذا كان جوابك يا سيِّدي؟

أبو عبيدة: قلت له: لك ذلك. فأنت أميرنا وقائد الحرب فينا.

صادق: كيف كان ذلك يا سيّدي؟

أبو عبيدة: لأنّ خالداً رضي الله عنه سيف الله وسيف رسوله في

الأرض، فهو من أعظم الناس بلاء، وأشدّهم غناء، وأعظمهم بركة، وأيمنهم نقيبة، وكان الروم أهون عليه من ذباب!.

صادقة: إنه لكذلك يا عمّي..

أبو عبيدة: تسلم خالد إمارة الجيش، وعبّأه تعبئة لم تعبّئها العرب من قبل.. جعل الجيش في ستة وثلاثين كُرْدُوساً (الكردوس مؤلف من ألف رجل) وجعل على الميمنة عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وجعل على الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وجعلني على كراديس القلب، وأقام على كل كردوس قائداً من شجعانهم، وكان القاضي أبا هريرة، وكان أبو سفيان هو القاصّ الذي يعظ الناس ويحرّضهم على القتال، فكان أبو سفيان بن حرب، يقف على كل كردوس ويقول:

ـ الله الله.. إنكم ذادة العرب، وأنصار المسلمين، وإنهم ذادة الروم، وأنصار الشرك. اللهمّ إنّ هذا يومٌ من أيامك، اللهمّ أنزل نصرك على عبادك.

ـ آمينَ آمينَ آمينَ يا ربَّ العالمين.

وتابع أبو عبيدة يروي لنا من تفاصيل المعركة فقال:

ـ وكان القرّاء يقرؤون على الجنود، وهم في الصفوف، سورة القتال، أي سورة الأنفال، وكان خالد قد جمعنا من اللحظة التي تسلّم فيها القيادة، وخطب بنا فقال:

ـ هذا يومٌ من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأرضوا الله بعملكم، فإنّ هذا اليوم له ما بعده، ولا تقاتلوا

قوماً على نظام وتعبية، وأنتم متساندون (أي يقاتل كل جيش على حدة) فإنّ ذلك لا يحلّ ولا ينبغي.. إنّ الذي أنتم فيه من (توزع القيادات) أشدّ على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم.. هلمّوا.. فإنّ هؤلاء قد تهيؤوا، وهذا يومٌ له ما بعده.. إن رددناهم إلى خندقهم اليوم، لم نزل نردّهم، وإن هزمونا، لم نفلح بعدها..

وتابع أبو عبيدة يقول:

ـ والروم أيضاً خرجوا في تعبيةٍ لم يرَ الراؤون مثلها، وهم أنشبوا القتال، فحملوا علينا حملة عنيفة أزالتنا عن مواقعنا إلى الحامية وكان عليها البطل المغوار: عكرمة بن أبـي جهل، وعمُّه الحارث بن هشام، فقال عكرمة:

ـ قاتلتُ رسولَ الله ﷺ في كلِّ موطن، وأفرّ اليوم؟!.

ثم نادى عكرمة بأعلى صوته:

ـ من يبايع على الموت؟

فبايعه عمُّه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور، في أربع مئة من وجوه المجاهدين وفرسانهم، فقاتلوا قتال من لا يهاب الموت، لأنهم باعوا أنفسهم لله، ونووا الشهادة في سبيل الله، فكانوا أبطالاً صناديد، فمنهم الجريح ومنهم الشهيد.

فلم أملك نفسي أنا وصادقة من الهتاف والتهليل والتكبير.. ثم تابع أبو عبيدة حديثه فقال:

ـ واشتدّ القتال بيننا وبين الروم طوال النهار، ونهد خالد

بالقلب، حتى تصافح القوم بالسيوف، وصار خالد بمن معه بين خيل الروم، ومشاتهم، وتضايقت خيل الروم، وأفسح لها المسلمون لتذهب في الصحراء، وترك الفرسان من الروم مشاتهم، لتأكلهم سيوف المسلمين، فاقتحموا في خندقهم، فاقتحمه عليهم خالد برجاله، فعمدوا إلى الواقوصة، فهَوَوْا فيها.

فصحتُ من شدّة الإعجاب والسعادة والهلع:

ــ على مهلك يا سيِّدي، فأنفاسي لم تعد تساعدني!.

فسكت أبو عبيدة لحظات، ثم تابع يقول:

ــ تصوّروا، يا أبنائي، مِئَةً وعشرين ألفاً سقطوا في الواقوصة فماتوا فيها، وهؤلاء غير الذين قُتلوا في المعركة.

والتقط أبو عبيدة أنفاسه ثم تابع يقول:

ــ وقد استمرّ القتال طوال النهار ومعظم الليل، وأصبح خالدٌ وهو في رواق رئيس جند الروم.

فسألت صادقة:

ــ كم شهيداً قدّمنا في معركة اليرموك الخالدة يا سيِّدي؟

أجاب أبو عبيدة رضي الله عنه:

ــ قدّمنا ثلاثة آلاف شهيد، كثير منهم من أجلّاء الصحابة الكرام.

ــ كم صحابياً كان معكم يا سيِّدي؟

ــ حوالي ألف صحابي، ومئة بدريّ، ممن شهد معركة بدر مع رسول الله ﷺ.

ـ رحمهم الله، ورضي عنهم وأرضاهم، فقد باركوا أرض الشام بدمائهم الزكية، وحرّروها بأرواحهم السامية التي بذلوها في سبيل الله تعالى.

وقال أبو عبيدة رضي الله عنه:

ـ وقاتلت النساء المسلمات في ذلك اليوم قتال الأبطال في بعض الجولات، وكنّ يسقين الجنود، ويداوين الجرحى، ويسهرن على تمريض المرضى.

فهتفت صادقة:

ـ الله أكبر.. ما كنت أظنّ جَدَّاتِنا شاركْنَ في القتال..

وقال أبو عبيدة:

ـ نسيتُ أن أقول لكم: في صباح معركة اليرموك، جاء مراسل الخليفة، جاء (يَرْفأ) مولى أمير المؤمنين عمر، ينعىٰ إلينا الخليفةَ الصدّيق رضي الله عنه، ذلك الخليفة العظيم الذي لا نِدّ له ولا مثيل بين الخلفاء والأمراء والملوك والرؤساء قاطبة، وكان (يرفأ) يحمل كتاب الخليفة الجديد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه يعزل خالداً، ويولّيني إمارة الجيوش مكانه.

فصرختُ:

ـ يعني.. أنهى دور خالد؟

قال أبو عبيدة:

ـ كيف؟ من يستطيع إنهاء دور خالد البطل المجاهد الذي عجزت النساء أن يلدْنَ مثله، كما قال أمير المؤمنين عمر؟

قلت: إذن.. لماذا عزله، إذا كان هذا هو رأيه فيه؟

أجاب أبو عبيدة، وهو يتململ في جلسته:

ـ لهذا قصة تطول.. فقط تبادلنا المواقع، صرتُ القائد العامّ، وحلَّ خالدٌ محلّي..

فسألتُ من جديد:

ـ ولم يؤثر هذا العزل على سيِّدنا خالد؟

ـ أبداً.. لم يفلَّ هذا الإجراء من عزيمة خالد، بل بقي ذلك البطل الصنديد، وأَوْقَعَ هو ورجاله كالقعقاع العظيم، ما لم يُوْقعه أحدٌ بالروم.

فقالت صادقة معلّقة:

ـ هكذا ينبغي أن يكون الرجال يا أخي.. يعملون لوجه الله، مخلصين جهادهم لله، لا تهمُّهم المناصب مهما علتْ، ولأنّ سيف الله خالداً كان من أبناء الآخرة، كان هو ورجاله من أبناء الآخرة، ففازوا بشرف الدنيا والآخرة..

ثم التفتتْ إلى أبي عبيدة وسألته:

ـ أليس كذلك يا عمّي العزيز؟

ـ بلى يا ابنتي.. إنه لكذلك، وإنّ خالداً ليس له مثيل بين القادة العسكريين.

وقلتُ أنا:

ـ وبعد اليرموك يا سيدي؟

قال أبو عبيدة:

ـ بعد اليرموك، تجمعت فلول الروم في (فِحْل) كما بدأت إمداداتهم تصل إلى دمشق. فجاءتنا توجيهات أمير المؤمنين عمر، أن نتوجه لفتح دمشق، لأنها حصن الشام. وبيت ملكهم، وأن نشاغل جموع الروم في (فحل).

ـ ونفذتم تعليمات أمير المؤمنين!

ـ طبعاً نفذناها، وحاصرنا دمشق، فكنتُ أنا من ناحية، وخالد من ناحية، وعمرو بن العاص من ناحية، وأقمتُ عسكراً بين حمص ودمشق، لئلا يأتيهم مددٌ من حمص، وأرسلت كتائب أخرى لتكون بين دمشق وفلسطين، لتصدَّ أيَّ مددٍ يأتي منها.

سألتُ أبا عبيدة:

ـ كم يوماً حاصرتم دمشق يا سيِّدي؟

أجاب أبو عبيدة:

ـ حاصرنا دمشق على هذه الصورة سبعين يوماً، نزاحف الروم، ونرميهم بالمجانيق، وهم معتصمون بالمدينة، يرجون الغياث من هِرَقْل.

ـ وهل أرسل هرقل لهم المدد؟

ـ نعم.. أرسل هرقل خيلاً لإنجادهم، فمنعها فرسان المسلمين من التقرب نحو دمشق.

وسكت أبو عبيدة لحظات ثم تابع يقول:

ـ من طبيعة خالد، أنه لا ينام ولا يُنيم، ولا يبيت إلاَّ على

تعبية، تحسُّباً لكلّ طارىء، وعيونه مبثوثة هنا وهناك وهنالك، تنقل إليه كل ما يجري داخل دمشق.

وعرف خالد انشغال حُماة المدينة بحفلة أقامها بَطْرِيقُ دمشق، فانتهز هذه الفرصة، ونهض فيمن معه من الأبطال، وتقدَّمهم هو والقعقاع ومذعور بن عَدِيّ، وتسلّقوا السلالم، واحتلّوا السُّور، وكبّروا فكبّر المسلمون، واندفعوا نحو باب المدينة، وقتلوا الحراس الواقفين على الباب، وفتحوا الباب الشرقي من المدينة، وتدفق منه المجاهدون يكبّرون، وأعملوا سيوفهم بالمقاتلين، وعرف الروم ما فعل خالد، فجاؤوني يطرحون الصلح عليّ، وأنا لا أدري شيئاً عن خالد وجنوده الميامين.. عرضوا عليّ الصلح بالشروط التي أريدها، فلمّا وقّعنا وثيقة الصلح، قالوا لي:

ــ اكفونا خالداً.

عندئذ علمت ما فعل خالد.

ومع أنّ خالداً دخل دمشق عنوة، فإنّي أجريت ناحية خالد، على صلح أهل الأبواب الأخرى.

ــ الله أكبر.. ما هذا التسامح العجيب عندك يا سيِّدي؟!

وقالت صادقة:

ــ وبعد تحرير دمشق يا عمي؟

أجاب أبو عبيدة رضي الله عنه:

ــ بعد فتح دمشق، وتحرير أهلها من طغيان الروم، جاءتنا أوامر أمير المؤمنين، بصرف جيش العراق إلى العراق، ليكونوا مدداً

لسعد بن أبـي وقاص هناك، فصرفتُهم بقيادة هاشم بن عتبة بن أبـي وقاص، وأمرتُ القعقاع الذي جعلتُه على المقدّمة، أن يسبق الجيش برجاله الأبطال. فتحرك القعقاع كما يتحرك معلمه خالد، ووصل إلى القادسية في اليوم الثاني من القتال، والمسلمون في ضيق شديد.

ـ وخالد؟ أين خالد يا سيِّدي؟

ـ استبقاه أمير المؤمنين معي، ليكون الفارس الذي لا يُشَقُّ له غبار، ليكون المساعد والمرشد والقائد، يساعدني في قيادة الجيش، وتسيير الحملات.

ـ ثم ماذا يا سيِّدي؟

ـ ثم حصرْنا مدينة (فِحْل) وفتحناها، وقتلنا قائدَيِ الروم، وهَزَمْنا الرومَ هزيمة منكرة، وفتحنا مدينة حمص، وقيساريّة، وأجنادين، وفتحنا قنّسرين وحلب والقدس، وطهّرنا بلاد الشام من طواغيت الروم، ودخلت بلاد الشام في حظيرة العروبة والإسلام، وإلى الأبد بإذن الله تعالى.

ـ إن شاء الله تعالى تبقى بلاداً عربية إسلامية، ومركز إشعاع فكريٍّ وحضاريٍّ إسلامي للدنيا بأسرها.

وسألت صادقة عمّا إذا كان لسيِّدي أبـي عبيدة ذكرى أثيرة مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال:

ـ لي معه ذكريات وذكريات.

ـ منها مثلاً؟!

فاعتدل أبو عبيدة في مجلسه وقال:

ـ لما قدم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى الشام، تلقّاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض، فقال عمر:

ـ أين أخي؟

قالـوا:

ـ مـن؟

قـال:

ـ أبو عبيدة:

قالـوا:

ـ يأتيك الآن.

فلمّا أتيتُه، نزل فاعتنقني، ثم قال لي:

ـ اذهب بنا إلى منزلك.

قلـت:

ـ وما تصنع فيه؟ ما تريد إلاَّ أن تعصِّر عينيك عليّ!.

فلما دخل منزلي، ولم ير فيه شيئاً قال:

ـ أين متاعُك؟ ما أرى إلاَّ لبداً وصحفةً وشناً، وأنت أمير؟

ثم سألني:

ـ عندك طعام؟

فقمت إلى جونة فأخذت منها كُسَيْرات من الخبز، وقدّمتها له، فبكى عمر، فقلت له:

ـ قد قلتُ لك: ستعصِّر عينيك عليَّ يا أمير المؤمنين.. يكفيك ما يبلّغك المقيل.

فقال عمر:

ـ غرّتنا الدنيا كلّنا غيرك يا أبا عبيدة.

قالت صادقة:

ـ يزور الشام بمرقّعته، ويقود الناقة بعبده، ويأبىٰ أن يعذّب بهيمة في شهوة نفسه، ثم يتهم نفسه بأنّ الدنيا قد غَرَّتْه!.. أيُّ عظيم هذا الخليفة عمر يا سيِّدي الفاضل؟

قال أبو عبيدة:

ـ هذا عمر يا صادقة.. هل تستطيعين أن تتصوّري وجود هذا الرجل في دنيانا؟

فقلت:

ـ كلُّكم عمر.. كلُّكم أبو عبيدة.. كلُّكم خالد.. كلُّكم سعد.. كلُّكم أبو ذر.. كلُّكم أبو بكر..

ـ لا يا صادق.. لا تغلط.. اذكر أهل الإسلام جميعاً واستثن أبا بكر، فهذا رجلٌ انعدم نظراؤه وأنداده وأقرانه وأمثاله بين صحابة رسول الله ﷺ، فكيف بغيرهم!.

وسألت صادقة:

ـ هل تحفظ حديثاً معيناً تعظنا به يا جدّي الفاضل؟

قال أبو عبيدة، وقد أصلح من هيأته، كأنه يريد أن يكون مع الرسول القائد عليه السلام:

ـ سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول:

«إنه لم يكن نبيٌّ بعد نوح إلاَّ وقد أنذر قومَه الدجّال. وإني أنذركموه».

فوصفه لنا رسول الله ﷺ وقال:

«لعله سيدركه بعضُ مَنْ رآني أو سمع كلامي».

قالوا: يا رسول الله ﷺ، كيف قلوبُنا يومَئذ؟ أمِثْلُها اليوم؟

قال: أو خير.

فعلّقت صادقة على حديث الدجّال بخوف، فقلت:

ـ نريد ذكرى أخيرة لك مع أمير المؤمنين يا سيِّدي، فقد أثقلنا عليك اليوم.

قال أبو عبيدة رضي الله عنه:

ـ كتب إليَّ أمير المؤمنين، بعد أن وقع الطاعون في الشام، وقتل آلاف الناس من المسلمين:

«قد عَرَضتْ حاجةٌ عندنا، ولا غنى فيها عنك، فإذا أتاك كتابي هذا، فإني أعزم عليك إن أتاك كتابي ليلاً أن لا تصبح حتى تركب، وإن أتاك نهاراً، أن لا تمسي حتى تركب إليّ».

فلمّا قرأتُ كتاب أمير المؤمنين قلت في نفسي: قد عَرَفْتُ حاجة أمير المؤمنين.. إنه يريد أن يستبقي من ليس بباقٍ.. ثم كتبتُ إليه:

«إني قد عرفتُ حاجتك التي لك، فخلِّني من عزمتك يا أمير المؤمنين، فإني في جند من أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسي عنهم».

سألت أبا عبيدة في لهفة:

ــ هل غضب عليك أمير المؤمنين يا سيِّدي؟

قال أبو عبيدة، وهو يواري دمعتين ترقرقتا في عينيه الساحرتين الخاشعتين:

ــ فلمّا قرأ عمر كتابي بكى. فقيل له: مات أبو عبيدة؟

قال: لا، وكأن قد.

ــ يعني؟

ــ يعني كأنه قد مات.

ثم كتب إليّ أمير المؤمنين أنَّ الأردنَّ أرض غمقة، وأنّ الجابية أرض نزهة، فاظهر بالمسلمين إلى الجابية.

ــ وهل استجبتَ ونفذت طلبه يا سيِّدي؟

ــ طبعاً نفذته وأنا أقول: هذا نسمع فيه أمير المؤمنين ونطيعه.

قالت صادقة:

ــ ولمّا طُعنتَ يا جدّي الفاضل في عمواس بالأردن، دعوتَ مَنْ كان في محضرك من المسلمين وقلتَ لهم:

ــ إني موصيكم بوصيّة، إن قبلتموها فلن تزالوا بخير:

أقيموا الصلاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدّقوا، وحُجّوا، واعتمروا، وتواصَوْا، وانصحوا لأمرائكم، ولا تغشّوهم، ولا تُلهكم الدنيا، فإنّ امرءاً لو عُمِّرَ ألف حَوْل (أي ألف سنة) ما كان له بُدٌّ من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون.

إن الله تعالى كتب الموتَ على بني آدم، فهم ميّتون، فأكيسُهم (أي أعقلُهم) أطوعُهم لربّه، وأعملُهم ليوم معاده، والسلام عليكم ورحمة الله.

ثم التفتّ إلى معاذ وقلت:

ــ يا معاذ بن جبل، صلِّ بالناس.

ولمّا انتقلت روحك الطاهرة إلى الفردوس الأعلى، وأنت ابن ثمان وخمسين سنة، قام معاذ في الناس فقال:

يا أيها الناس!. توبوا إلى الله من ذنوبكم، فأيُّما عبدٍ يلقى اللّهَ تعالى تائباً من ذنبه، إلاَّ كان على الله حقاً أن يغفر له.. من كان عليه دين فلْيَقْضِه، فإنّ العبد مرتهن بدَيْنِه، ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه، فلْيَلْقَه فلْيصالحه، ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام.

أيها المسلمون، قد فُجعْتُم برجلٍ ما أزعم أني رأيت عبداً أبرَّ صدراً ولا أبعد من الغائلة، ولا أشدَّ حبّاً للعامّة، ولا أنصحَ منه. فترحموا عليه، واحضروا الصلاة عليه.

• • •

المصَادر وَالمـَراجع

١ ــ الرياض النضرة في مناقب العشرة، المحبّ الطبري.

٢ ــ سير أعلام النبلاء، للذهبـي.

٣ ــ الكامل في التاريخ، ابن الأثير.

٤ ــ معجم البلدان، خلّكان.

٥ ــ قادة فتح الشام ومصر، محمود شيت خطاب.

٦ ــ قادة فتح العراق والجزيرة، محمود شيت خطاب.

٧ ــ الطريق إلى دمشق، أحمد عادل كمال.

٨ ــ السيرة النبوية، ابن هشام.

٩ ــ تاريخ الخلفاء، السيوطي.

١٠ ــ رجال حول الرسول، خالد محمد خالد.

١١ ــ السيرة النبوية، ابن كثير.

١٢ ــ صفة الصفوة، لابن الجوزي.

١٣ ــ حلية الأولياء، لأبـي نعيم.

• • •